الذي يدق فيه النظر ويقع به التفاضل هو الذي يدل بلفظه على
معناه اللغوي ثم يجد لذلك المعنى دلالة ثانية على المقصود
فهنا الفاظ ومعان اول ومعان ثوان فالشيخ يطلق على المعاني
الاول بل على ترتيبها في النفس ثم ترتيب الالفاظ في النطق على
حذوها اسم النظم والصور والخواص والمزايا والكيفيات
ونحو ذلك ويحكم قطعا بان الفصاحة من الاوصاف الراجعة
اليها وان الفضيلة التي بها يستحق الكلام ان يوصف بالفصاحة
والبلاغة والبراعة وما شاكل ذلك انما هي فيها لا في الالفاظ
المنطوقة التي هي الاصوات والحروف ولا في المعاني الثواني التي
هي الاغراض التي يريد المتكلم اثباتها او نفيها فحيث يثبت انها من
صفات الالفاظ او المعاني يريد بهما تلك المعاني الاول
وحيث ينفي ان تكون من صفاتهما يريد بالالفاظ الالفاظ
المنطوقة وبالمعاني المعاني الثواني التي جعلت مطروحة في
الطريق وسوى فيها بين الخاصة والعامة ولست انا احمل كلامه
على هذا بل يصرح به مرارا كما قال لما كانت المعاني تتبين بالالفاظ
ولم يكن لترتيب المعاني سبيل الا بترتيب الالفاظ في النطق
تجوزوا فعبروا عن ترتيب المعاني بترتيب الالفاظ بحذف
الترتيب واذا وصفوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ
المنطوق ولكن معنى اللفظ الذي دل به على المعنى الثاني والسبب
انهم لو جعلوها اوصافا للمعاني لما فهم انها صفات للمعاني الاول
المفهومة اعني الزيادات والكيفيات والخصوصيات فجعلوا
كالمواضعة فيما بينهم ان يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة
التي حدثت في المعنى والخاصية التي تجددت فيه وقولنا صورة
تمثيل وقياس لما ندركه بعقولنا على ما ندركه بابصارنا فكما ان تبين
انسان من انسان يكون بخصوصية توجد في هذا دون ذاك
كذلك يوجد بين المعنى في بيت وبينه في بيت اخر فرق فعبرنا
عن ذلك الفرق بان قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورية في ذلك

وليس هذا من مبتدعاتنا بل هو مشهور في كلامهم وكفاك قول الجاحظ
وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير هذا نبذ مما ذكره الشيخ
ثم انه شدد النكير على من زعم ان الفصاحة من صفات الالفاظ
المنطوقة وبلغ في ذلك كل مبلغ وقال سبب الفساد عدم التمييز
بين ما هو وصف للشيء في نفسه وبين ما هو وصف له من اجل امر
عرض له في معناه فلم يعلموا انا نعني بالفصاحة التي تجب للفظ
لا من اجل شيء يدخل في النطق بل من اجل لطائف مدركة بالفهم بعد
سلامته من اللحن في الاعراب والخطا في الالفاظ ثم انا لا ننكر
ان تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يوجب الفضيلة ويؤكد
امر الاعجاز وانما ننكر ان يكون الاعجاز به ويكون هو الاصل والعمدة
وانما اوقعهم في الشبهة انه لم يسمع عاقل يقول معنى فصيح والجواب
ان مرادنا ان الفضيلة التي بها يستحق اللفظ ان يوصف بالفصاحة
انما تكون في المعنى دون اللفظ والفصاحة عبارة عن كون
اللفظ على وصف اذا كان عليه يدل على تلك الفضيلة فيمتنع
ان يوصف بها المعنى كما يمتنع ان يوصف بانه دال ولها اي
وللبلاغة في الكلام طرفان اعلا اليه تنتهي البلاغة كذا في
الايضاح وهو حد الاعجاز وهو ان يرتقي الكلام في بلاغته الى
ان يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته فان قيل ليست
البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة وعلم البلاغة
كافل باتمام هذين الامرين فمن اتقنه واحاط به لم لا يجوز
ان يراعيهما حق الرعاية فياتي بكلام هو في الطرف الاعلى من البلاغة
ولو بمقدار اقصر سورة قلنا لا يعرف بهذا العلم الا ان هذه
الحال تقتضي ذلك الاعتبار مثلا واما الاطلاع على كمية الاحوال
وكيفيتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات فامر اخر
ولو سلم فامكان الاحاطة بهذا العلم لغير علام الغيوب ممنوع
كما مر وكثير من مهرة هذا الفن تراه لا يقتدر على تاليف كلام
بليغ فضلا عما هو في الطرف الاعلى وما يقرب منه ظاهر

Copyright © King Saud University